د. رجاء العبدلي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة صفاقس – تونس

تطور الفضاءات الطبيّة بالمغرب وإفريقيّة في العصر الوسيط البيمارستانات والدهنات.

المقدّمة :

إن الاعتناء بالطب مظهر من مظاهر الحضارة العربيّة في المشرق والمغرب والسبب في ذلك راجع على علاقة هذا العلم بحياة الناس وحفظ أبدانهم ورعاية أجسامهم ولذلك كان التواصل مرتبطا بين العلوم العربية والعلوم عند الأمم الأخرى في هذا الباب لأن الجسم رهن بمدى العناية التي يوليها المهتمون به سواء فيما يتعلق بدراسة أعراضه الذاتية أو دراسة ما يتصل به من وسائل العلاج؛ الشيء الذي جعل الاهتمام الطبي لا ينصب على تشخيص الأمراض فقط بل انصب أيضا على البحث عن وسائل العلاج بطريق التغذية وطريق التكيف مع الطبيعة وأماكن للعلاج .

فتميزت الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى بتقدمها على باقي الحضارات, فكل مجال ينهض المجال الآخر حتى أصبحت متقدمة بكل المجالات, فالبيمارستانات (المستشفيات) في ذلك العهد منتج متميز خليط من الإبداع الطبي و المعماري و الإداري. فالأبحاث الطبيّة كانت تنتج الجديد في الطب و الصيدلة و تطبق في البيمارستان, و التصاميم الهندسية صممت بما تتناسب مع أجواء النقاهة, و الفصل بين الجنسين الرجال و النساء, و أيضا تصميم كل قسم بحسب الأمراض.

وشهدت المغرب وإفريقية نشوء وتطورا تاريخيا لهذا النوع من المستشفيات بين المجالين. واختلافا واضحا في المفهوم. لكن كل هذا لا ينفي مساهمات علماء الأندلس المسلمون في هذا العلم (علم النبات) بحيث أسهم هؤلاء أيما إسهام في

تطور هذا العلم بما قاموا به من تجارب وعانوه من بحث وتنقيب وتجوال فبرعوا في الطبابة ومارسوها وألفوا العديد من المؤلفات الطبية، حيث نجد أن أكثر أطباء العرب كانوا صيادلة أو أصحاب قدح معلى في الصيدلة. وأصبح هؤلاء المصدر الأساسي لمعرفة الطب والصيدلة عند العرب. وصار الطب فنا من الفنون فكيف عرّف الطب في الطب لغويا واصطلاحا في المصادر؟

– تعريف الطب لغة واصطلاحا

يعرّف الأنطاكي الطبّ بأنّه "علم يعرف به أحوال بدن الإنسان من جهة الصحة والمرض وغايته بقاء الصحة بحسن التدبير في الغذاء، ورفع المرض بصرف الغاية في الدواء، فينبغي صرف العناية فيما يتعلق بالمأكول والمشروب ."[1]

والطب"هو علاج الجسم والنفس والطبيب هو العالم بالطبّ،والطبيب هو الرفيق والطبيب هو الحاذق الماهر بعمله. وأصل الطب الحذق بالأشياء والمهارة بها والطبيب في الأصل الحاذق بالأمور والعارف بها وبه يسمّى الذي يعالج المرضى طبيبا. والمتطبّب: الذي يعاني الطب ولا يعرفه معرفة جيّدة."[2]

ويذكر ابن خلدون الطب بأنه :" فرع من فروع الطبيعيات ...صناعة الطب هي صناعة تنظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح ... فيحاول صاحبها على حفظ الصّحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية ويسمّى العلم الجامع لهذا كلّه علم الطبّ ..."[3].

[1]الشيخ داود عمر الأنطاكي المتوفي 1008 م ، **خلاصة تذكرة داود المسمى بغية المحتاج في المجرب من العلاج بالأعشاب** ، مكتبة الصفا ، القاهرة ، الطّبعة الأولى ، 1427 هـ - 2007 م ، ص 9

[2] ابن منظور (جمال الدين) ، **لسان العرب** ، دار صادر، لبنان،1992 ، ج 1 ، ص 553 – 556.

[3]ابن خلدون (عبد الرحمان) ، **كتاب الأكبر العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان**، الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1984 ، ج 2 ، ص 619 -620.

ويشير ابن خلدون في موضع آخر بأن صناعة الطبّ هي :" صناعة ضرورية في المدن والأمصار لما عرف من فائدتها فان ثمرتها حفظ الصحة للأصحّاء ودفع المرض عن المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم.".[1]

فالطب حسب تعريف الأطباء هو"معرفة قوانين كليّة يتوصّل بها إلى استخراج جزئيات يستعان بها على حفظ الصّحة وإزالة المرض ".[2]

ويضيف الشّيخ أبي الفداء محّمد عزت محّمد عزت عارف قائلا : " صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم "يا عباد الله، تداووا، فانّ الله لم يضع داء إلا وضع له "وصدق أبقراط (أبو الطب) حين قال: "الطب الهام الله سبحانه وتعالى". أجل فالطّب الهام وتوفيق من الله عزّ وجلّ، وصدق الله العظيم إذ يقول:" ..واتّقوا الله ويعلّمكم ....". وقد قال الإمام الشافعي – رحمه الله – :" فلا أعلم علما بعد الحلال والحرام أنبل من الطّب.".[3]

إذن فالطب هو علم يعرف من خلاله أحوال بدن الإنسان ويعمل على حفظ صحته ويزيل عنه المرض. و" الطب له مفهومان لغة واصطلاحا. فأما في اللغة فينطبق على العلم والفهم ... وأما في الاصطلاح ففيه حدود كثيرة فهو علم صناعي موضوعه بدن الإنسان يحصل عند مراعاته عادة دوام الصّحة وزوال المرض وهو علم ظنيّ كعلم الفقه ...".[4]

---

[1] ابن خلدون (عبد الرحمان) ، **المقدّمة** ، دار الفكر، لبنان، 2002، ص 395. وطبعة دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1961 ، المجلد الأول ، ص 739.

[2] الصقلي (محمد) ، **المختصر الفارسي** ، مخطوط بدار الكتب التونسية بتونس ، رقم 10865، الورقة 6 و.. Klein - Franke (F) et Zhu , Ming, « **Tibb** » ***EI2***, Leiden Brill , 2002 , TX, p 488.

[3] محمد عارف (الشّيخ أبي الفداء محّمد **عزت**) ، **ال1000 وصفة ذهبيّة في العلاج بالأعشاب الطبية** ، القاهرة : دار الفضيلة ، 1997 ، ص 11. **سورة البقرة : الآية** 282 .

[4] الصقلي (أحمد) ، **شرح أرجوزة ابن سينا في الطب** ، مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس ، رقم 16152 ، الورقة 1و.

وذهب في نفس السياق أجقو علي بقوله "باختصار الطب هو فنّ البحث في الأمراض والعلل التي تصيب الإنسان والبحث عن العلاج لها والتّخفيف من آلام النّاس.".[1]

وقد عرفت إفريقيّة الطب بالمعنى العلمي الدقيق بظهور أوّل طبيب بها وهو الطبيب السرياني" أبو يوحنا ماسويه الذي قدّم القيروان أمير يزيد بن حاتم المهلي سنة 155 هـ / 772 م وأصبح يعالج رجال الدولة وأعيانها.".[2]

ويعتبر علم الطب أكثر العلوم التصاقا بعلم التغذية لاشتغالهما على نفس الموضوع (البدن)، إما من جهة النماء أو البقاء. وقد اصطلح على ذلك في الطب العربي القديم بحفظ الصحة أو"الطب الوقائي". فيقول ابن الخطيب السليماني:" "فوضح فضل صناعة الطب، وتقرر عناؤها وتعين، ولما كان غرضها المهم وغايتها التي بالفص داليها تتم حفظ الصحة إذا حصلت، أوردها إلى معتادها كلما انتقلت.". [3]

وأصبح الطب مهنة قائمة الذات في المجتمع الإفريقي والمغربي. وما ميّز الطب والأطباء خلال هذه الفترة هو علاقة الأطباء بالأمراء والسلاطين واهتمام رجال الدولة بالصناعة الطبيّة مما جعل إفريقية مقصدا للأطباء من مختلف الأقطار العربية من بغداد و مصر والأندلس. ولمع أطباء أكفاء في هذا الميدان، وألفوا كتب طبيّة كثيرة تعكس أنماط وأساليب العلاج السائد في المجتمعين في

---

[1] أ . د . أجقو علي ، **" الأطبّاء الأندلسيون ودورهم في اثراء الدّراسات الطبيّة وتطويرها " ، *مجلّة دراسات أندلسيّة*** ، عدد 30 جمادى الأول / شوّال - جويلية / ديسمبر 1424 هـ - 2003 م ، تونس، ص 103.

[2] عبد الوهاب (ح . ح) ، **ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية** ، مكتبة المنار ، تونس ، 1976 ، ج 3 ، ص 476.

[3] ابن الخطيب السليماني (أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن سعيد) ، **كتاب حفظ الصحة في الفصول** ، مخطوط الخزانة العامة ، مركز التوثيق بالرباط ، رقم 2672 -652 د، ص 3 ، العربي (الطاهر) ، **التغذية في الإسلام يحققها العلم الحديث** ، المعهد القومي للتغذية ، تونس، الطبعة الأولى ، سنة 1406 هـ - 1985 م ، ص 5.

الفترة الوسيطة. وتلاقحت المعارف الطبيّة بين الدول الإسلامية. بالإضافة إلى ما توفر من عناية بالمؤسسات الصحية.

وخصّصت عدة فضاءات طبيّة لعلاج الأمراض الذهنية والمسنين وغيرهم . وشهدت هذه الفضاءات الطبيّة تطورا تاريخيا هاما . ولجأ التطبيب المغربي والإفريقي في مداواة مرضاه إلى مشافي عامة المتمثلة في البيمارستانات والدمنات.

وقبل ذكر أهم المارستانات و الدمنات الموجودة في المغرب وإفريقيّة والتطرّق إلى تطور هذه الفضاءات الطبيّة في الفترة الوسيطة ، نتوقف عند تعريف هذه المفاهيم. والتطرق إلى تطورها المفهومي والعلاجي حسب المسار التاريخي ؟

- تطورالفضاءات الطبيّة بالمغرب وإفريقيّة

1- تطورها بالمغرب : البيمارستانات

فالبيمارستان كلمة " فارسية مكونة من كلمتين : بيما :بمعنى مريض أو عليل أو مصاب و ستان : بمعنى مكان أو دار، والكلمة بذلك تعني دار المرضى . واختصت في المغرب والأندلس وأصبحت مارستان فقط."[1]

ويذكر محمد بن الخوجة أيضا أن:" لفظ مارستان محرف عن بيمارستان في اللغة الفارسية ودخل الإستعمال بتونس في عهد الدولة المرادية على يد الأتراك . قال الشهاب الخفاجي :هولفظ فارسي إستعملها العرب ومعناها مجمع المرض لأن بيمارمعناه المريض وستان هوالموضع."[2]

وتذكرالمصادر أن البيمارستانات نشأت " في جنتد يسابوربفارس قبل الإسلام بثلاثة قرون حيث كانت طائفة الأطباء النسطوريين تديربيمارستانا أقاموه هناك

[1] عيسى بك (أحمد)، **تاريخ البيمارستانات في الإسلام** ، دارالرائد العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1981 ، ص 4 . البستاني (بطرس)، **محيط المحيط** ، مكتبة لبنان ،بيروت ،1877 ، ص 846 . Sehswvaraglu (Bedi N), « **Bimaristan** » , ***EI2***, E.J. Brill , Paris , Editions G.P . Maisonneuve et Larose S.A , TI , 1975, p 1258.

[2] بن الخوجة (محمد) **"مارستان العزافين ، وثيقة تاريخية جليلة"**، ***المجلة الزّيتونيّة*** ، المجلد الثالث ، الجزء التاسع ،تونس ، شهررمضان 1358 هـ ،أكتوبر1939 ، ص 384.

بعد أن هربوا من اضطهاد الرومان الشرقيين لهم. أما بعد الإسلام فقد قيل أن الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي (86 –96 هـ / 715م) أنشأ بيمارستانا للمج اومين والعميان وأجرى عليهم أرزاقهم . على أن البيمارستانات الثابتة لم تنشأ إلا بعد أن بلغ الطب درجة عالية من الرقي في عهد العباسيين ثم انتشرت البيمارستانات في مختلف البلاد التي ضمتها الإمبراطورية الإسلامية الكبرى . وكان أشهر هذه البيمارستانات ما أقيم في الري وبغداد ودمشق والقاهرة وتونس.".[1]

فظهرت ببلاد المغرب مشافي عامة تسمى مارستانات ، بحيث " لم تخل مدينة كبيرة، لا في المشرق ولا في المغرب من المستشفيات العامة ، وكان الخلفاء والأمراء والأغنياء يتبارون بإنشائها والتبرع لها ووقف الأوقاف الواسعة للإنفاق عليها ".[2]

ويشيرإلى ذلك أنورالرفاعي بقوله :" وكان الأمراء الموحدون قد أنشأوا بيمارستانا كبيرا في مدينة مراكش ، وكان من أشهر أطبائه ابن طفيل وابن رشد . كما أقيمت بيمارستانات على غرارهذا البيمارستان في مدن المغرب وتونس والجزائر وبلاد الأندلس ." .[3]

وعرف الطب المغربي خلال العهد الموحدي (524هـ – 609 هـ / 1130م–1212م) ازدهارا واضحا ، ونال عناية ملحوظة من طرف الخلفاء الذين عملوا على بناء المستشفيات العامة المتمثلة في البيمارستانات . بحيث " لم يشغلهم اهتمامهم بالطب الخاص عن الاهتمام بالطب العام ، فقد أسس

[1] الطبري (محمد بن جرير)، **تاريخ الرسل والملوك** ، تحقيق أبوالفضل إبراهيم ، دارالمعارف بمصر ، القاهرة ، د.ت ، ج 6 ، ص 496.

[2] المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الإكسو) ، **الموجز في تاريخ الطب عند العرب** باشراف محمد كامل حسين ، د ت ، ص 227. الد. عيسى(أحمد) ، **المرجع نفسه** ،ص 10.

[3] الرفاعي (أنور)، **الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية والسياسية والعلمية والإجتماعية والإقتصادية** ، دارالفكر، دمشق، 1982، ص 610.

الخليفة الموحدي الثالث يعقوب المنصورالموحدي (580هـ -595هـ / 1184-1199م) مارستانات للمرضى والمجانين وأجرى الإنفاق على أهلها ". [1] . " أسسها في مراكش وشالة والقصر"[2] .

ومنذ القرن الهجري السادس، انتشرت البيمارستانات تدريجياً في مختلف الحواضر الكبرى بالمغرب، كفاس ومكناس والرباط وسلا ومراكش وطنجة وغيرها، بل كانت بعض المدن تحوي عدة مارستانات في آن واحد، وظهرت في المغرب بعض المارستانات المخصصة للمجانين والمختلين عقليًّا، إشتهر منها مارستان سيدي فرج بفاس، الذي أُسس في القرن السابع الهجري، واستمر العمل فيه إلى أواسط القرن العاشرالميلادي،وكذلك مارستان محمد الغازي بالرباط "الذي كان يؤمه العتهاء والمجانين، من أنحاء المغرب بقصد العلاج والإستشفاء، وله أوقاف خاصة لهذه الأغراض.."

ففي عهد المرينيين(642 – 869هـ - 1244-1465م) ، صارالمارستان الرئيسي في عدوة المغرب هو"مارستان فاس المسمى باب الفرج لأن المرضى يفرج كربهم فيه أو نسبة لأندلسي من بني الأحمريدعى فرج جدده بعد 900هـ / 1494م . وقد يني على يد يعقوب المنصور المريني من أجل خدمة المرضى والمجانين . ويقع قرب سوق العطارين وسوق الحناء من عدوة القرويين . وقد أوقفت عليه الأوقاف وخصصت له الأموال لشراء الأدوية وإعدادها و مدواة المرضى ودفع أجور الأطباء على عهد يعقوب المنصور المريني وأبي الحسن وأبي عنان ." .[3]

---

[1] المراكشي (عبد الواحد) ، **المعجب في تلخيص أخبارالمغرب** ، طبعة القاهرة ، 1949 ،ص 287. ابن شقرون (محمد)، **الحياة الثقافية في المغرب الأقصى في العهد المريني الوطاسي** ، بالفرنسية ، الرباط ، 1974 ، ص 484.

[2] ابن أبي زرع (علي) ، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس** ، باعتناء كارل بوجن تورنبرغ ، او بسالة ، 1843، 1846، ص 138.

[3] عيسى بك (أحمد) ، **المرجع نفسه** ، ص 284-285. ابن أبي زرع (علي)، **الأنيس المطرب** ، **المصدرنفسه**، ص 298.ابن مرزوق(أبو عبد الله محمد) ، **المصدرنفسه** ، ص 116. ابن أبي زرع (علي الفاسي)، **الذخيرة السنية** ، **المصدرنفسه** ، ص 91 ، 100. ابن الحاج النميري (ابراهيم بن عبد الله)، **فيض**

و يعتبر مارستان مراكش المعروف بدار الفرج أول مارستان في المغرب لأنّه يقوم بدور علاج المرضى و الاعتناء بصحتهم. فيقول المراكشي :" وبنى (يعقوب المنصور(580هـ – 595هـ / 1184م –1199م) بمدينة مراكش مارستان ما أظن أن في الدنيا مثله ، ... وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة و الأدهان و الأكحال ، وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهارللنوم من جهاز الصيف والشتاء ، فإذا نقه المريض، فإنه كان فقيرا أمر له عند خروجه بمال يعيش به ... ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت.". [1]

ومع مجيء المرينيين توسعت حركة المارستانات، وصارت مدن عديدة تحتضن مؤسسات من هذا النوع ومنها : فاس ومكناس ومراكش وتازة وآسفي. ويبرزلنا ابن أبي زرع مدى اهتمام المرينيين بها عند حديثه عن يعقوب المنصور المريني حيث قال:" صنع المارستانات في بلاد المرتضى للغرباء والمجانين وأجرى عليهم النفقات وجميع ما يحتاجون إليه من الأغذية (...) ".[2]

ونفس الاهتمام يظهره أبو الحسن المريني كما يثبت ابن مرزوق في هذا النص :" جدد إمامنا رضه رسم المارستان بمدينة فاس وغيرها (...) وكان لمولانا رضه بهذا أعظم اعتناء." . [3]

وسار" أبو عنان على نفس الخطوات إذ كان من أعماله بناء المارستانات في كل بلد من بلاده ، وتعيين الأوقاف الكثيرة لمؤن المرضى وتعيين الأطباء لمعالجتهم

العباب وافاضة قداح الأدب في الحركة السعدية الى قسنطينة والزاب ، تحقيق محمد بن شقرون ،الرباط ، 1994، ص 17.

[1] المراكشي (عبد الواحد) ، **المعجب في تلخيص أخبارالمغرب** ، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، دارالكتاب، البيضاء ، الطب 7 ، 1978 ، ص 190-191. وطبعة القاهرة 1963، ص 364و ص 412، 651. Sehswvaraglu (Bedi N), « **Bimaristan** », **Op.Cit**, p 1260.

[2] ابن أبي زرع (علي الفاسي) ، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية** ، دارالمنصور، الرباط ، 1972 ، ص 91 .

[3] ابن مرزوق (محمد التلمساني) ، **المسند الصحيح الحسن في مآثرومحاسن مولانا أبو الحسن** ، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا ، الشركة الوطنية للنشر ، الجزائر،1981 ، ص 415.

والتصرف في طبهم ." . [1] وقد زادت هذه العناية من انتشار المارستانات وتوسع عدد المستفيدين منها.

خصّصت البيمارستانات في البداية للغرباء دون غيرهم من سكان المغرب ثمّ اهتمت بعلاج المجانين فيذكرالكانوني أن " أهل فاس قديما كانوا يعالجون المصابين بالجنون في مارستان الفرج الشهيربالموسيقى وآلة الطرب ، وكان لازما على أرباب الموسيقى الحضور في كل أسبوع مرة أو مرتين لأنه يفيد في انشراح الصدوروانعاش الروح . ". [2]

وخصص بفاس " مارستانا لسجن المجانين الخطريين". [3]

ويعالج المارستان " كل أنواع الأمراض ، لكنه مع الأيام سيفقد هذه الخاصية ، وصارحكرا على المجانين .". [4]

و" اهتم الحكام بالمجتمع فبنوا البيمارستانات للمرضى والمجانين ، ورتبوا لهم الأطباء لتفقد أحوالهم ، كما أجروا عليهم المرتبات والنفقات من بيت المال، نفس الشيء فعلوه مع الجذامى والعمي والفقراء حيث رتبوا لهم مالا معلوما يقبضونه كل شهرمن جزية اليهود.". [5] وكان فيها " (البيمارستانات) من أنواع

---

[1] ابن بطوطة (محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي) (ت 778هـ / 1377م، **تحفة النظارفي غرائب الأمصاروعجائب الأسفار**، تحقيق عبد الهادي التازي ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ،1997، ج 4 ، ص 200.

[2] الكانوني (أبو عبد الله محمد)، **تاريخ الطب بالمغرب** ، مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط ، رقم 1486 ، ص 64. Ben Abdallah (A) , I . - **at - Tib wa al attiba bi al - Magrib , al - matba ' a al - iqtisadiyya**, Rabat, 1960 , p 44. BelHaj (N) , I . **at . Tatbib wa as - Sihr fi al Maghrib (Médecine magie au Maroc)** ,Thése de D. E. S de Sociologie , Faculté des Lettres , Rabat , 1980 - 1981 , p 49-50.

[3] Léon l'Africain (Jean), **Description de L'Afrique** , Traduction Temporal, édition Schefer , Paris 1896 - 1898 ,TII , p 78. Et Nouvelle édition traduite de l'italien par A. Epaulard † et annotée par A. Epaulard, Th. Monod, H. Lhote et R. Mauny. Paris, 1956, réimpression 1981, TI, p 88. Et Le Tourneau (Roger), **Fès avant le Protectorat**, Casablanca, 1949. P 255 – 257 .

[4] عيسى بك (أحمد) ، **المرجع السابق** ، ص 4.

[5] ابن حيان (أبو عبد الله جابر)، **المقتبس في أخبار بلد الأندلس** ، تحقيق عبد الرحمان علي الحصي ، دارالثقافة ، بيروت - لبنان ، طبعة 1983، ص 44-45. الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد) ، **الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى** ، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري - دارالكتاب ، الدارالبيضاء ، 1954، ج 3 ، ص 99.

الأشربة والمعاجين النفسية والمربيات الفاخرة وأصناف الأدوية و العطريات الفائقة التي لا توجد ولا فيها ". [1]

كما يلتجئن النساء المغاربة إلى المارستانات للقيام بتحضير وصفاتهن الطبيّة السحرية ، ويشيرإلى ذلك شبال ملاك بقوله :" ففي فترة الحمل يقصدن النساء المغاربة المارستانات لتساعدهن على سهولة الوضع .". [2]

وقد حرص سلاطين بني مرين ، وخاصة يعقوب بن عبد الحق (656 – 685 هـ / 1286م) على بناء المارستانات وتعيين الأطباء عليها.". [3]

ثمّ تابع سلاطين بني مرين الإهتمام ببناء البيمارستانات فأنشأ السلطان "يوسف بن يعقوب مارستانا بمنصورة قلمسان.كما بني السلطان أبو الحسن المريني بفاس البيمارستانات " . [4] . كما أنه " إهتم بالعلاج الطبيعي حيث أنشأ (حمة خولان) على عين المياه المعدنية الساخنة "[5].

لكن هذا المارستان خصص" للمسلمين الذين لا ملجأ لهم وكذلك المجانين"[6].

وذكرالوزان أن"فاس كانت تحتوي على مارستانات أخرى داخل وخارج المدينة."[7].

كما ظهرت بمدينة سلا مارستان ذكره ابن الخطيب عند وصفه للمدينة . وذكره ابن الحاج النميري بمناسية زيارة أبي عنان للمدينة سنة 757هـ / 1356م قائلا :" فمبناه صحيح لا يفارقه عليل وقوي لا يريمه ضعيف مستنيل . فما شئت به

---

[1] القلقشندي (أبوالعباس أحمد بن علي) ، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء** ، دارا لكتاب الخديوية ، القاهرة ، 1915، ج 4 ، ص 10.

[2]Malek (Chebel) , **Le Corps dans la Tradition au Maghreb** , Paris- Press Universitaires de France , 1984, (Sociologue d'Aujourd'hui), p 27-28.

[3] مؤلف مجهول ، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية** ، الجزائر ، 1920 ، ص 100.

[4]الخطيب ابن مرزوق (لسان الدين) ،" **المسند الصحيح الحسين من أحاديث السلطان ابن الحسن** "، ***مجلة ايسبيريس*** ، سنة 1925 ، تحقيق ليفي بروفنسال ، ج 5 ، ص 21

[5]الجزناني (الحسن علي) ، **زهرة الآس في بناء مدينة فاس** ، تلمسان ، 1922، ص 26-27.

[6] عيسى بك (أحمد) ، **المرجع نفسه** ، ص 284. ابن أبي زرع (علي)، **الأنيس المطرب** ، المصدرنفسه ، ص 298. ابن مرزوق (محمد التلمساني) ، **المصدر نفسه** ، ص 116.

[7] ليون الافريقي (الحسن الوزان) ، **وصف افريقيا** ، ترجمة عن الفرنسية الد. محمد حجي والد. محمد الأخضر،دارالغرب الإسلامي ، بيروت - لبنان ، طبعة ثانية ، 1983 ، ص 227.

من رفق يتمهد أكنافه ، وتأنيس تتجدد ألطافه وعلاج تتورد قطافه ، وتدبير يحسن مرتفعه، ويضرب بندرجه الطرق طوافه، فلا سقيم إلا وحديث برئه ليس بالسقيم[1]".

وذكره ابن علي الدكالي متحدثا عن أبي عنان كما يلي :" وقد بنى لمدينة سلا المارستان العجيب وسط حارة اليهود من حومة باب حسين ، وهو بناء حفيل مشتمل على بيوت كثيرة لاستقرار المرضى والمجانين والحمقى بها . وكان محل هذا المارستان فندقا للزيت قديما (...) فبنى أبو عنان به المارستان المذكور، وعين له أطباء مهرة من الذين يعانون العلم قراءة وعلاجا." [2]

و"كان أبوحفص السلاوي يعمل بمارستان ابن عنان بسلا.".[3]

أيضا "أسس السلطان الواحد مولاي عبد الرحمان مستشفى في سلا بدون أطباء لعلاج المرضى عن طريق بركة الأولياء الصالحين ."[4]

وتبين هذه الأوصاف أن هذا المارستان كان فخما مجهزا بأحسن الوسائل من بناء وأطباء وأوقاف، لذلك مارس مهمته في العلاج.

بالإضافة الى تواجد المارستانات بمدينة مكناس وآسفي وتلمسان . بحيث كان بمكناسة أيضا مارستان " لكنه كان مهجورا في عهد السلطان أحمد بن أبي سالم المريني (776-786هـ / 1375- 1385م) "[5].

إن الشاعر الأديب أحمد بن يحي بن عبد المنان الخزرجي قدّم "مكناسة" مع أبي العباس أحمد بن أبي سالم ، ونزل ابن عبد منان في مارستان مكناسة ، لكونه

---

[1] ابن الحاج النميري(ابراهيم) ، **المصدرنفسه** ، ص 43. ابن الخطيب (أبو عبد الله محمد)، **معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار**، تحقيق محمد كمال شبانة ، مطبعة أكدال ، الرباط ، 1977، ص 74.

[2] ابن علي الدكالي (محمد بن علي)، **الاتحاف الوجيز" تاريخ العدوتين "** ، تحقيق مصطفى أبو شعراء ، مطبعة المعارف الجديدة الرباط ، 1986، ص 1. ابن الخطيب (عبد الله) ، **الإحاطة في أخبار غرناطة** ، مطبعة الموسوعات ، مصر، 1894 ، ج 1 ، ص 430.

[3] ابن الخطيب (عبد الله لسان الدين محمد) ، **الرسائل** ، **(مشاهدات ابن الخطيب)** ، تحقيق أحمد مختار العبادي ، الإسكندرية ، 1983 ، ص 104 – 105.

[4] Brunot (L) , **Textes arabes de Rabat :** : Textes transcription et traduction annotée, impr. E. Bertrand, 1931 ,TII , Glossaire , p 753.

[5] ابن القاضي (أحمد)، **جذوة الاقتباس في ذكرمن حل من الأعلام مدينة فاس** ، دار المنصور، الرباط ، 1973، ج 1 ، ص 124.

خاليا ...فكتب إليه السلطان أبيات منها : مازال يتعبد الغاوون من زمن حتى لقد همت في وادي المارستان.".[1]

ويشيرابن الخطيب إلى وجود مارستان بمدينة آسفي ، " عندما أورد اسم المشرف عليه وهو الحاج أبو الضياء منيربن أحمد بن محمد بن منيرالهاشمي الجزيري ." [2]

إذا لقد زادت هذه العناية من انتشار المارستانات وتوسع عدد المستفدين منها. فظهرت بتلمسان مارستان. " بحيث لم يكن بنو عبد الواد في تلمسان خارج هذه الحركة ، إذ كانت المدينة في النصف الثاني من القرن الثامن هجري / الرابع عشر ميلادي مزودة بمارستان ." .[3]

عموما، فالمارستان مؤسسة طبيّة انطلقت في عهد الموحدين في مراكش ، ثم ما لبثت في العهد الموالي أن عمت كل المدن الكبرى ، ثم انتقل تأثيرها إلى تلمسان .

كما تضم المارستانات المصابون بالمجاعة ، ويشير إبن خلدون إلى ذكر مارستان تلمسان عند حديثه عن " مجاعة 776هـ / 1375م ، ذلك أن الأمير البني عبد الوادي جعله ملجأ لأهل البادية الذين طردهم الجوع نحو مدينة تلمسان ، وتكفل بالإنفاق عليهم حتى زوال المجاعة وعودة الخصب " . [4]

وتأخذ كلمة مستشفى اليوم في اللغة المغربية الحالية عدة أسماء " مثال مارستان بتطوان . عموما أطلق هذا الاسم على سجن المجانين الخطيرين.".[5]

---

[1] بن المكناسي (أبوالعباس أحمد) ، **درة الحجال في أسماء الرجال** ، تحقيق محمد الأحمدي ، القاهرة ، 1970 ، ج 1 ، ص 53.

[2] ابن الخطيب (لسان الدين)، **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب** ، تحقيق أحمد مختار العبادي ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ت ، ج 2 ، ص 72-73.

[3] ابن خلدون (أبو زكرياء يحي بن أبي بكر)، **كتاب بغية الرواد في ذكرالملوك من بني عبد الواد**، نشر الفريد بيل، مطبعة فونطانة ، الجزائر، 1911 ، 1903، Imprimerie Orientale , Alger، ج 2 ، قسم 1 ، ص 326.

[4] ابن خلدون (أبو يحي) ، **كتاب بغية الرواد ، المصدرنفسه** ، ج 2 ، قسم 1 ، ص 326.

[5] Marçais (w), **Textes arabes de Tanger : transcription, traduction annotée, glossaire ,** Paris: Imprimerie Nationale, 1911.

ولم تكن مهمة هذه البيمارستانات قاصرة على مدواة المرض ،" بل كانت في نفس الوقت معاهد علمية ومدارس لتعليم الطب ، يتخرج منها المتطببون والجراحون" الجرائحيون" والكحالون كما يتخرجون اليوم من مدارس الطب."[1] .

إذا ان البيمارستانات هي مؤسسات اجتماعية تضامنية ذات أبعاد حضارية. ويشيرإلى هذا الد. محمد فؤاد الذاكري قائلا :" وبشكل عام كان مبنى البيمارستان ينقسم الى قسمين منفصلين : قسم للذكور وآخر للإناث ، وفي كل قسم قاعات للأمراض المتنوعة ، فقاعة للأمراض الباطنية ، وقاعة للجراحة ، وقاعة للكحالين ، وقاعة للتجبير ، ولكل قاعة رئيس ، فكان رئيس الأمراض الباطنية ، ورئيس للجراحين ورئيس للكحالين ....". [2]

فمنذ أن تقلد " بنو مرين زمام الأمور في بلاد المغرب ، وهم يحرصون على إقامة المستشفيات ، اما المدارس الطبية النظرية فإننا لا نعلم إلا بالمدرسة العظمى التي أنشأها أبو الحسن المريني في مدينة سلا لتكون مدرسة عليا متخصصة في العلوم الطبية.". [3]

وجمع المارستان الموحدي بين الوظائف العلاجية والإحسانية والتعليمية ، وهو ما يفند ما ذهب إليه علي حامد الماحي بقوله :" من كون هذا النموذج لم يظهر إلا مع بني مرين ". [4]

وازدهرت صناعة العقاقيروالعطور، فهناك ثلاث ظواهرتؤكد تطور الصنعتي: " تقدم الكيمياء ، وازدهار الدراسات الطبية ، وإنشاء المنصور الموحدي من مستشفيات للمرض والمجانين في كل المغرب ، وقد ألحق بكل مستشفى بيتا لصنع الأشربة

[1] عيسى بك (أحمد) ، **تاريخ البيمارستانات ، المرجع نفسه** ، ص 10.

[2] الد. فؤاد الذاكري (محمد) ، " **الصناعة الطبية في بلاد الشام من منتصف القرن الخامس الى أواسط القرن السابع الهجري** " ، ***مجلة آفاق الثقافة والتراث*** ، السنة العاشرة : العدد الأربعون - شوال 1423 هـ - يناير(كانون الثاني) 2003 م ، ص 168 - 169 . الشطي (شوكت) ، **تاريخ الطب** ، منشورات الجامعة السورية ، دمشق ، ، 1957 م ، ج 4 ، ص 9.

[3] Marçais (G) , **Manuel d'art Musulman** , P U F, Paris , 1981, TII, p 514.

[4] الماحي (علي حامد) ، **المغرب في عصرالسلطان أبي عنان المريني** ، دارالنشرالمغربية ، دارالبيضاء، 1986، ص 237.

والأدهان . وكانت الأعشاب الطبيّة تجمع في منطقة فاس ، وقد استفاد المغاربة من تجارب غيرهم في هذه الصنعة وأضافوا جديدا ، يقول السقطي عن العقاقير أنها قد بلغت نحو الثلاثة ألف في العدد ، والاختراعات لا تنقطع ."[1].

ونلاحظ أن المؤسسة الطبيّة في المغرب الأقصى كانت في خدمة البلاط الموحدي أو المريني . أما المؤسسات الإستشفائية وإن كانت من إنجازات الملوك فقد خصصت لمدواة العامة والخاصة.

إذا لقد انتشرت المارستانات بمختلف مدن المغرب بداية من العهد الموحدي ، وتطور خاصة في عهد المرينيين حيث وجدت بمدن فاس وسلا ومكناسة وآسفي وتلمسان وكلها تعالج المرضى الغرباء والمجانين ، قبل أن تضعف الدولة المرينية وتصبح مجرد ملاجيء للمرضى الغرباء وسجونا للمجانين تعيش على إحسان أهل البر. فلقد ظهرت المارستانات كمؤسسة طبيّة عمومية منذ نهاية القرن السادس هجري / 12م ،متخصصة في خدمة المرضى والمجانين واحتضانهم في وقت الشدة والمجاعات. وفتحت لهم أبوابها لتؤكد على حرص هذا المجتمع المغربي على احتضان مرضاه. فالمارستان من هذا المنظور مؤسسة بر وإحسان تشبه في وظيفتها الزوايا التي اخترعت في هذه الفترة لإيواء الغرباء، والفرق بينهما هو كون الأولى تستقبل المرضى أما الثانية فتستقبل الأصحاء. وقد ارتبط وجود هذه المؤسسات العلاجية بالسلطات القائمة ، فكلما كانت قوية زاد دعمها لها وازدهرت ، وكلما ضعفت تدهورت وسقطت في الإهمال كما حصل في نهاية العصر الوسيط عندما خرب بعضها وتحول البعض الآخر إلى مجرد ملاجيء للمرضى والمجانين توفر المأوى والمأكل دون علاج.

[1] المنوفي (محمد) ، **حضارة الموحدين** ،الدارالبيضاء ، دارتوبقال ، 1989 ، ص 243-244. موسى (عزالدين أحمد) ، **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري** ، دار الشروق ، 1983، ص 196. الغديفي (محفوظ) ، **الطب والأطباء بالمغرب الأقصى في العصرالوسيط المتأخر(XII-XV)** ، إشراف محمد حسن ، ش .ك. ب ، ص 24.

ولقد عرفت أماكن العلاج في المغرب تطورا واضحا ، إذ انتقلت من أماكن مغلقة وخاصة وهي منازل الأطباء ومصحات القصور إلى مصحات عمومية تنتشر في الأسواق والشوارع منذ القرن الخامس هجري / 11م وهي أكثر الأشكال تعبيرا عن تأثير الطب في عمارة المدينة المغربية وجلبه لعامة السكان . ودعمت هذه المؤسسات الخاصة منذ نهاية القرن السادس هجري بظهور المارستانات التابعة للدولة ، والتي خصصت لعينة اجتماعية معينة ومحددة وهم المرضى الغرباء والمجانين الذين لا مسكن لهم وفاقدين السند. وبواسطة هذه المؤسسات تمكن المجتمع المغربي من احتضان كل مرضاه والعناية بهم سواء كان قريبا أو غريبا .

2– تطورها بإفريقيّة : الدمنات :

ظهر هذا النوع من المشافي العامة بإفريقيّة التي تعدّ مارستانا لعلاج المرضى لكن الاسم يختلف، ففي المغرب يطلق عليه مارستانات وفي إفريقيّة يعرف المشفى العام دمنة.

وهذا ما يجرنا إلى التساؤل متى أحدثت المارستانات بالقطر التونسي ، وخاصة بإفريقية ؟ ومن أسسها ؟ وهل أن هذه المارستانات مماثلة للمارستانات المغربية أو أنها مختلفة عنها.؟ وماهي وظيفتها الطبية؟

فقبل الغوص في تعداد أماكن انتشار المارستانات بإفريقية ، سنعرج على تقديم المعنى اللغوي لكلمة دمنة التي تحمل أكثر من دلالة لمفردة واحدة . " فالدمنة تعني الدار، وتعني أثرها ، كما تفيد ما احتط من البعروالطين عند الحوض ، أو أنها تعني بية الماء في الحوض ، كما تفيد عفن النخلة وسوادها. كما أن الدمنان يعني الإدمان والعفن، كما تفيد معنى الإقامة ولزوم المكان."[1]

[1] ابن منظور(أبوالفضل جمال الدين محمد) ، **لسان العرب** ، دار صادر ، بيروت ،2003 ، ج 7 ، ص 304.**(مادة دمن)**

ولم نجد في المصادر المتوفرة لدينا ما يحدد بدقة تاريخ إحداث أول مؤسسة صحية بإفريقيّة ويذهب البعض إلى "أن الأمير الأغلبي زيادة الله الأول 201 هـ – 223 هـ / 816 م – 836 م هو الذي بنى أول مستشفى بالقيروان والذي عرف باسم الدمنة وأصبح هذا الاسم يطلق فيما بعد التي أحدثت لاحقا في مدن أخرى بإفريقيّة.".[1]

و"الدّمنة وهي المارستان.و الدمنة في الاصطلاح التونسي القديم هو ما ننعته اليوم بالمستشفى ، وهي دار معدة لإيواء المصابين بالأمراض المعضلة التي يطول أمر علاجها أوالتي يخشى منها سريان العدوى إلى الأصحاء كالجذام وغيره. وقد أطلق إسم (الدمنة) قديما على المارستانات التي أسسها بنو الأغلب في المدائن التونسية الكبرى كالقيروان ، وتونس وسوسة ، و صفاقس (سفاقس) ، تقليدا لأول مستشفى أقيم بالقيروان في مكان يعرف (بالدمنة) في حارة المرضى ، خارج سور المدينة في جهة ضريح السيد الصاحب الآن فيما يظهر.".[2]

و"الدمنة بالقيروان هي المؤسسة التي يقابلها في المشرق البيمارستان.".[3]

لكن لم يقدّم الإخباريون أوصافا عن "عمارة " الدمنة بالقيروان وشكلها ونظامها الداخلي ولا عدد الأعوان الذين يعملون بها ولا أسماء الأطباء الذين باشروا مهامهم بهذه الدمنة.

أيضا لقد ظهرت بإفريقية مارستانات تسمى الدمنة مخصصة لإيواء الجذماء وهي تدل على محل المجذومين أومحلة المرض كما تعبر عنها المصادر الإفريقية . وإن أقدم المصادر التي تشير لدار الجذماء بالقيروان يرجع وجودها إلى القرن الثاني للهجرة . فيذكر المالكي ذلك عند حديثه عن أحمد بن معتب بن أبي الأزهربن

---

[1] عبد الوهاب (ح.ح) **"الطب العربي في تونس"** ، مجلة الفكر(تونس) ، ج 3 ، عدد 10 ، جويلية 1958 ، ص 7 - 9 ، .....، **ورقات** ، **المرجع نفسه** ، طبع تونس ، مكتبة المنار ، 1976،ج 1 ، ص 284 – 285 ،

[2] **نشرهذا البحث بعنوان :" الطب العربي في إفريقية التونسية ، في القسم الأول من كتابنا " ورقات "** طبع تونس سنة 1965، ص 273. عبد الوهاب (ح .ح) ، **المرجع نفسه** ، ج 2، ص 46-47.

[3] عيسى (أحمد) ، **تاريخ البيمارستانات في الإسلام** ، دارالرائد العربي ، لبنان ،1991 ، ص4 – 5.

عبد الوارث بن حسن الأزدي :"وكان [سبب موته]– على ما ذكر ابن اللباد الفقيه – من خوف الله عزوجل:وذلك أنه حضر مجلس الذكر" بمحل المرضى".[1]

وجاء في معالم الإيمان والمدارك وحسن حسني عبد الوهاب وغيرها من المصادر– وهي تنقل بعضها عن بعض – " أن أبا عمر وهشام بن سرور التميمي " كان يذهب إلى دار الجذاماء بالدمنة في (عيد)الفطر، و(عيد) الاضحى ، ويجعله ويطعمهم بيده ويفلى خروقهم ويدهن رؤوسهم وتوفي سنة 307هـ ".[2]

ويؤيده في ذلك ابن ناجي بقوله :" وخصص بإفريقية أماكن خاصة لإقامة الجذامى حسب مؤسسات الدمنة."[3]

بينما يشير هادي روجي ادريس بأن الدمنة تدل على محل المجذومين ، فيقول :" يعرف موضع الدمنة بربض المبتلين والذي يضم دار الجذماء ومأوى المكفوفين والعجز والمعوزين."[4]

كما انتشرت الدمنة في أماكن مختلفة من المجتمع الإفريقي (تونس وسوسة وصفاقس) للعناية بصحة سكانها . فيذكر حسن حسني عبد الوهاب بأن " بني الأغلب أحدثت في كل مدينة كبيرة في القطر مرستان أو مستشفى للمصابين بالأمراض المعضلة التي يطول علاجها والتي يخشى منها تسرب العدوى إلى السكان .

وأول هذه المارستانات هي الدار التي أنشأت بالقيروان في ناحية من أطرافها تسمى " الدمنة " تقرب من المسجد المعروف بمسجد السبت ، وإنما أطلق على هذا المستشفى اسم الموضع الذي أقيم فيه البناء، فصار علما له ، فاقتصر في

---

[1] **نفسه** ، ج 1 ، ص 471.

[2] ابن ناجي (أبو الفضل أبو القاسم)، **المصدرنفسه** ، طبعة تونس 1320 ، ج 11 ، ص 235. عبد الوهاب (ح . ح)، **ورقات** ، طبعة تونس ، 1965، ج 1 ، ص 273.

[3] الدباغ (أبوزيد عبد الرحمان بن محمد الأنصاري) ، **المصدرنفسه**، الطبعة الأولى ، 1388هـ - 1968م ، ج 2 ، ص 335.

[4] Idriss (H. R) , **La Berbérie Orientale sous les Zirides Xe-XII Siécles** , Paris : Librairie d'Amérique et d'Orient , Adrien, Maisonneuve, 1962, T2, p 422.

تعريفه على كلمة " الدمنة " أسقط اسم " بيمرستان " أو " مرستان " أو مستشفى، وربما عرف كامل الحي باسم " حارة المرضى" . [1]

وخصصت "هذه الدار(الدمنة) كانت تسمى "دار الجذماء" لا يقيم بها إلا من كان مصابا بداء الجذام."[2]

ومما يؤكد ما جاء في كلمة الدمنة بمعنى حي الجذماء الفتوي الآتية للفقيه الونشريسي : " سئل الونشريسي عن دمنة في بعض نواحي إفريقية وبها أرض تسمى " الأحباس " يسكنها أصحاب – هل يثبت تحبيس هذا الموضع ؟ فأجاب : هذه البقعة المسماة بهذا الاسم كان بها الأضواء بالجذام ، وإذا كثر عددهم ليكونوا بناحية لا يضرون بالناس فهم أحق بها وما كان من وقف فإليهم يقصد ." . [3]

وكان أمراء الأغالبة "يزورون الدمنة في المناسبات الدينية والأعياد ويتعهدون من فيها بالملابس والأغذية وكل ما يحتاجونه فقد كان الأمراء يأتون إلى الجامع ثم يتوجهون إلى الدمنة فيما بعد."[4] . ولهذه الدمنة نظاما الخاص بها فقد كانت مجهزة بماجل خاص ويمنع من بها مخالطة الآخرين وخاصة المجذومين منهم.

ويمنع المجذومين من مخالطة الآخرين فيقول البرزلي :" يمنع المجذومين من مخالطة الناس في الإستقاء من الماء...وكان في القيروان ربض يسمّى بربض المبتولين (تسمية المجذومين) وهو ربض خصص لهم فيه ما يحتاجونه يقع قريبا من مقام

---

[1] عبد الوهاب (ح .ح) ، **ورقات عن الحضارة العربية بآفريقية التونسية** ، مكتبة المنار ، تونس ، الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة ، 1972، ج 2 ، ص 273-274. المالكي (أبوبكرعبد الله) ، ، **كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم ونسلكهم وسيرمن أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم** ، حققه بشيرالبكوش وراجعه محمد العروسي المطوي ، دارالغرب الإسلامي ، بيروت - لبنان : ، الطبعة الأولى ، 1403هـ - 1983م ، ج 1 ، ص 411 - 413. وج 2 ، ص 66.

[2] **نفسه** ، ج 2 ، ص 276.

[3] الونشريسي (أحمد) ، **المعيارالمعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء آفريقية والأندلس والمغرب،** تحقيق جماعة من الفقهاء ،إشراف محمد حجي، بيروت، الطبعة 2 ،1401 هـ - 1981 م. ، ج 7 ، ص 26 ، طبعة حجرية 1316هـ .

[4] المالكي (أبوبكرعبد الله) ، ، **كتاب رياض أ المصدرنفسه** ، ج 3 ، ص 412. الدباغ (أبوزيدعبد الرحمان) (605هـ -696هـ) ، **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان** ، المكتبة العتيقة ، تونس ، د ..ت ، ص 115.

الصحابي أبو زمع البلوي ...وجعل لهم ماجل لم أزل أسمع بالقيروان يقال له ماجل المجذومين".[1]

ومما لا شك فيه أن " أطباء البلد، وكذلك" فقهاء البدن"كانوا يباشرون مرضى الدمنة ويتفقدونهم ويصفون لهم من الأدوية ما يناسب علاجهم، ونعرف منهم طبيب الأغالبة المشهور(زياد بن خلفون) الآتي ذكره ،كان يخرج في أيام معينة إلى الدمنة فيزور من بها وكذا من " بدارالجذماء " للكشف عن المصابين وتتبع سيرمرضهم وعاهاتهم. " [2]

ونقل الدباغ عمن تقدمه :" أن هاشم بن مسرور المذكور– المتوفي سنة 307هـ – كان يذهب إلى " دار الجذماء " فيصنع الحلوى في عيدي الفطر والاضحى ، ويجعل المرضى صفوفا فيطعمهم ويدعو لهم ثم ينصرف ." [3]

ويضيف حسن حسني عبد الوهاب قائلا :" أما الأعمال الخيرية التي أجرتها ووقفت عليها فهي كثيرة منها : إقامة مرستان داخل الحاضرة – بحومة العزافين – لمعالجة أصناف الآلام ، وقد صار يسمى بعد (المستشفى الصادقي)."[4]

إذا لقد وجدنا في كتب التراجم نصوص كثيرة تشير إلى إسعاف المياسيرمن أهل البرّ لمن كان يقيم بالدمنة من المرضى والمصابين. ودلالة على عناية الأغالبة في العصر الوسيط بسكانها والاهتمام بصحتهم . وأصبحت هذه الدمنة نموذجا يحتذى به في إفريقية فقد أنشأت مؤسسات صحية أخرى حملت اسم الدمنة مثل سوسة ودمنة صفاقس ودمنة تونس.

إذ وجدت مارستان بمدينة سوسة ، بحيث " أحدث الأغالبة بعد ذلك في أحياء المدينة ، دمنة (مارستان)على نمط ما كان موجودا في القيروان، إلا أن هذه ربما

---

[1] البرزلي (أبوالقاسم)، **فتاوي البرزلي جامع مسائل الأحكام** ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، دارالغرب الاسلامي ، بيروت ،الط 1 ،2002 ، ج 3 ، ص 221.

[2] عبد الوهاب (ح .ح) ، **المرجع نفسه** ، ج 2 ، ص 277-278.

[3] **نفسه** ، ج 2 ، ص 280.

[4] عبد الوهاب (ح. ح) ، **شهيرات التونسيات** ، منشورات مكتبة المنار، تونس ، الطبعة الرابعة ، 1965 ، ص 135.

كانت أقل اتساعا نظرا لصغر سوسة بالنسبة لعاصمة إفريقية الكبرى بعدد قاطنيها ، ويتضح من النصوص التاريخية أن الأمراء كانوا يعتنون أيضا بشؤونها ويخصونها بالزيارة حينما يقدمون لتفقد مرفاهم الحربي الكبير، فيمنحون مرضاهم العطايا بين الفينة والأخرى ، ويوزعهم، عليهم الهبات والعطايا من المال والأطعمة واللباس. فهذا ابراهيم الثاني بن أحمد المتقدم كان لا يتخلّى عن زيارتها كلما قدم سوسة ، ويسأل مرضاها عن حالهم ، ويصلهم بالعطايا المناسبة ، 50 وقد توصلنا إلى معرفة عدد المجذومين بدمنة سوسة وكانوا خمسة عشر مجذوما في إحدى زورات ابراهيم الثاني للدار، هذا عدا المرضى غير المجذومين . ولا ننسى أن أهل الخير والفضل من السكان كانوا يهتمّون بحال نزلاء الدمنة حتى أن الرجل الصالح : محمد بن حميد المتعبد السويسي – وهومن أصحاب سحنون –كان يسكن دمنة سوسة ، ويخدم الأضراء حتى صار ضريرا . مثلهم ، أي أنه أبتلي هو أيضا بالجذام بطريق العدوى ومات منه في سنة 293 هـ – 906 م .". [1]

ومن المحتمل "أن هذه (الدمنة) كانت تقع في المحل الذي شغله فيما بعد (المارستان القديم) الذي أعدّ لعموم المرضى في أيام الدولة الحفصية ، ثم خصصّ في المدة التركية والحسينية للمجانين والمصابين بالأمراض العقلية."[2]

بالإضافة الى ذلك يؤكد البكري إلى تواجد دمنة بمدينة سوسة :" وبضواحي دمنة هناك دمنة الدواميس كانت خارجة عن المدينة بموضع يسمى وادي الدمنة ". [3]

نفس الشيء ما كان جاريا في الدمنتي السابقتين كان واقعا في دمنة صفاقس من معونة سكانها للمرضى المقيمين به ، فقد حكى المالكي في ترجمة الشيخ ابراهيم القشاش الصفاقسي – المتوفي سنة 322هـ – أنه " كان يعدّ الحلوى والدهن والطيب فإذا كان يوم العيد ذهب بكل ذلك الى دمنة (صفاقس) فيطيب به

[1] عبد الوهاب (ح .ح) ، **ورقات** ، **المرجع نفسه** ، ج 2 ، ص 282-283. المالكي (عبد الله بن محمد) ، **رياض النفوس** ، **المصدرنفسه** ، ج 2 ،ً13.

[2] عبد الوهاب (ح.ح) ، **المصدرنفسه** ، مطبعة المنار ، تونس، 1966 ، ص 49.

[3] البكري (أبوعبيد) ، **المسالك والممالك** ، طبعة الجزائر، 1911 ، ص 45.

أهل البلاء ، ويجعل الحلوى بين أيديهم ، فما زال يطعم هذا وهذا حتى يعمهم جميعا ، ويقسم بينهم الذي بقي،ثم يرجع إلى داره ". [1]

ويرجح البكري أن مكان المرستان كان في " الحي في الجهة الغربية من المدينة (تونس)، الذي كان يعرف فيما مضى " بربض المرضى" . [2]

إذا لقد ساهمت عناية الأمراء ورجال الدولة بالطب والأطباء وتأسيس المؤسسات الصحية في نشأة قاعدة طبية في إفريقية احتلت موقع هام في تاريخ الطب العربي والعالمي." وأصبحت مدرسة القيروان في الطب من مراجع الطب العربي والعالمي.". [3]

وتتغيرهذه الوضعية لاحقا وذلك في علاقة بالتحولات السياسية التي عرفتها إفريقية . ومع الاستقرار النسبي الذي عرفته تونس مع الحفصيين تعرف الصناعة الطبية نهضة من جديد لكن يتحوّل المركز من القيروان إلى عاصمة الدولة الحفصية تونس حيث برز عدد هام من الأطباء ومؤسسات صحيّة كانت لهم شأن في علم الطب.

إذا إن هذه المؤسسة الصحية تعتبر بناء اجتماعيا هاما باعتبارها تنظيما رسميا لكنه موجه أساسا إلى الفئات الشعبية ويرتكز على مقومات أساسية فهي البيئة التي تقع في إطارها الظاهرة الطبية وتعكس إلى حدّ ما تطوّر الصناعة الطبية في أي قطر من الأقطار. وتقدّم لنا وجه من أوجه التفاعل بين الجانبين النظري والواقعي للعلاقة بين المجتمع والطب والعلاج. وبالرغم من وجود هذه المؤسسة الطبية الهامة التي تعبر عن اهتمام سلاطين الدولة بالوضع الصحي لأن البيمارستان وإن كان بناء رسميا فالمستفيد منه هم الفقراء والمحتاجون. فالخدمة الطبية موجهة أساسا "للضعفاء والغرباء وذوي العاهات". وإنشاء البيمارستان

[1] المالكي (عبد الله بن محمد) ، **رياض النفوس** ، **المصدرنفسه** ، ج 2 ، ص 93 .
[2] البكري (أبو عبيد) ، **المسالك والممالك** ، **المصدر نفسه** ، ص 40.
[3] الكعاك (عثمان) ، **"الطب عند التونسيين "**، ***مجلة الثريا*** ، تونس ، عدد 3 ، 1946 ، ص 6 - 7.بن ميلاد (أحمد) ، **الطب العربي التونسي خلال 10 قرون** ، دار الإتحاد ، تونس ،1980 ، ص 169 - 174.

بحاضرة تونس يعتبر"متأخرا نسبيا مقارنة ببعض الحواضر العربية والإسلامية مثل بغداد ومصر و الاندلس والمغرب الأقصى كما أن العدد قليل بالمقارنة بالحواضر المذكورة.".[1]

لقد ظهرت مؤسسات المارستانات ببلاد المغرب وتطورت من فترة الى أخرى أما بإفريقية فظهرت ما يعرف بالدمنة التي كانت مؤسسة طبية هامة في المجتمع الإفريقي ساعدت المرضى على مدواة أسقامهم من جهة وتطوير أشكال التطبيب والأدوية وتركيبها وصنع الوصفات الطبية التي تتماشى وطبيعة المرض السائد من جهة أخرى . ولذا تعد هذه المؤسسات الطبية أو الفضاءات الطبيّة مؤسسات هامة في الطب المغربي في الفترة الوسطية ولعبت دورا كبيرا في الطب العربي الإسلامي. إذا صار الطب فنا وعلما يصنع داخل هذه المؤسسات الطبيّة .

خاتمة:

شهدت الفضاءات الطبيّة بإفريقية والمغرب تطورا كبيرا في المفهوم والوظيفة حسب المسارالتاريخي. فأطلق اسم بيمارستان في المغرب واسم الدمنة في إفريقية . وتحتضن كل هذه الفضاءات الطبية في البداية عامة المرضى والأصحاء دون تفرقة حسب الجنس والعرق والإنماء العرقي. ثم تطورت هذه الفضاءات الطبية وصارت تطلق البيمارستانات فقط على المجانين والدمنة على الجذامى دون سواهم. وشهد الطب في المغرب وإفريقيّة ازدهارا كبيرا في عصور الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي والاجتماعي وهو مرتبط بالتطور الثقافي والفكري واستقرار الأمن ومدى نفوذ السلطة السياسية وسيطرتها على الوضع. فقد ظهر أقدر الأطباء صناعة وتأليفا في هذه الفضاءات الطبية نتيجة التأثيرات الطبية المختلفة. فكل

[1] عيسى (أحمد) ، **تاريخ ، المرجع نفسه** ، ص 9 - 10 ، 203 - 205 Sanagustin(F)," **Medecine L'invention de l'hopital",*Les Cahiers Sciences et Vie*** , N°71 , France , 2002 , p 84. -90

طبيب جلب معه صناعة طبية معينة تلاقحت فيما بينها وأثمرت علما مميزا ألا وهو علم الطب الذي صاريلعب دورا هاما في الحضارة العربية الإسلامية في العلاج وأساليبه. إذا تلعب الفضاءات الطبيّة وظيفتين أولا فهي موضع للعلاج ومكان لصناعة الطب ، إذا إن الطب فنّا وعلما في آن واحد. فقد إستمرّ مدة أطول نظرا بالخصوص لمصلحته الاجتماعية وصبغته العلمية ، وقد كان يحتظى بعناية بعض المفكرين البارزين في علم الطب.